عبد الله عبد القهار

قصص من جمهورية أوزبكستان

عرض وتلخيص : خيري حماد

فى اوزبكستان ، احدى الجمهوريات السوفياتية الاسيوية ، حيث يقيم مسلمو روسيا ، أدب حديث ، يتميز بطابعه الشرقى الذى يغلب عليه الخيال ، ممزوجا بلمحات من الفكر الواقعى الاشتراكى ، الذى ولدته الثورة . ومن هذا المزيج من الخيال الابداعى ، والفكر الواقعى ، ظهر الطابع الرائع للأدب الاسيوى السوفياتى الذى يمثله قصاصنا الذى نتحدث عنه فى هذا المقال ، عبد الله « قهار » أو على الأصح عبد القهار ، الذى نال جائزة الدولة ، فى قصته المشهورة « العصفور الصغير » ، واحتل مكانة مموقة بين الأدباء السوفيات .

وفى لغة الازابكة كلمة خاصة هى «كوشمانشى» ، وتعنى الآفاق أو الجوال ، الذى لابيت له يحل فيه ولامقام . وقد لحقت هذه الصفة التى تحمل المهانة والزراية ، بعيد القهار ، الحداد المتجول ، الذى ينتقل من قرية الى قرية فى وادى فرغانة ، بحثا عن العمل والقوت . وكان ولده عبد الله ، الاديب الذى نتحدث عنه هنا ، يحس بالألم . كلما طرقت هذه الكلمة المقيتة مسامعه .

ولد عبد الله ، وهو لايعرف له بيتا . ولم تعلق بذهنه من ايام طفولته اية ذكريات جميلة ، من طراز تلك التى تعلق عادة بأذهان الاطفال ، وتعيش معهم سنى حياتهم ، يجترونها ، كلما طافت بهم فى شيخوختهم رؤى الصبا واحلام الشباب . وكل مايذكره من تلك السنوات التى لايعرف بالتحقيق بدايتها ، ان أخاه الصغير مات بين ذراعى أمه ، التى لم يعش من ابنائها الأربعة عشر الذين انجبتهم الا اديبنا عبد الله . وهو لاينسى ذلك اليوم الذى صحا فيه من نومه ، على صوت أمه وهى تجهش بالبكاء بعد أن ضربها أبوه بكتاب ثقيل على ام رأسها ، كما لايزال يذكر عبراته وهى تنهال فى ليالى الاعياد ، وهو يرى أقرانه يلبسون الجديد ، بينما حرم هو من كل شىء .

كانت متعته الوحيدة ، أن يعين اباه فى عمله ، فينفخ له فى كوره ، بينما تحيل يدا أبيه الماهرتان قطع الحديد الى فؤوس وأدوات زراعية . كماكان يحس بالسعادة فى ليالى الشتاء الباردة ، وقد التف بدثاره ، وهو يستمع الى مايقرؤ أبوه على أمه من قصص البطولات واخبار العشق والغرام فى كتاب قديم مهلهل ، تزينه الصور التى لم يفهم قط ما تعنيه .

ولما كانت حياته تنقضي في تجوال دائم ، فقد حرم من متعة الصداقة ، ولذا فقد اسلم نفسه الى العزلة ، والى شيء من الذهول ، حتى ليخيل لمن يراه ، انه من الصم البكم . وقد انمت هذه الساعات الطوال من الوحدة خياله . فعاش مع أوهامه وخيالاته ، يرددها أحيانا في أبيات من الشعر ، تنطلق فطريا على لسانه .

وقرر والده بعدان بلغ العاشرةمن عمره ، أن يلحقه بالمدرسة . وكانتالمدرسة من تلك الكتاتيب الدينية التي يقرأ فيها القرآن ويحفظه ، والتي وصفها القصصي السوفياتي المشهور صدر الدين العيني في رواياته . وسرعان ماانتقل من مدرسته هذه ، الى مدرسة اخرى ، احسن نظاما ، واوفر حظا في العلم ، حيث تتلمذ على يدي محمد خان كاري ، الاستاذ الضليع في اداب الشرق ، والذي كان له الفضل الاكبر في تنمية مواهب أديبنا الذي نتحدث عنه .

ووقعت الثورة في عام ١٩١٧ ، واجتاحت عصابات اللصوص القرية التي كان يدرس فيها ، واضطر الى الانقطاع عن الدراسة ، لاسيما وقد حلت بالمنطقة مجاعة كبيرة . ولكنه مالبث أن عاود الدرس في عام ١٩١٩ ، حيث التحق بمدرسة داخلية من المدارس التي أنشأتها الثورة في بلدة خوقند ، لينتقل منها الى دار المعلمين حيث بدأ يكتب للمرة الاولى في صحيفة المدرسة ، وينشر فيها بعض القصائد التي حازت اعجاب زملائه واساتذته .

وانضم الى منظمة الشباب «الكومسومول» في عام ١٩٢٤ ، وأصبح عضوا في لجنتها المحلية في خوقند . وشرع ينشر قصائده وكانت احداها في رثاء لينين ، وسرعان ماضمته صحيفة «جمهورية اوزبكستان» الى زمرة محرريها . وواصل دراسته في جامعة طشقند ، فنال شهادتها ثم التحق بمعهد اللغات والآداب ، حيث حصل على شهادة الدراسات العليا .

وخاض غمار الكفاح العنيف ضد القوى المعادية للثورة من الاقطاعيين والبورجوازيين . وكان النقد الأدبي في تلك السنوات ، نزعة ادبية تغلب على أدباء العصر ، لاظهار عيوب النظام الذي كانوا يعيشون فيه ، وتصوير مافي الحياةالقديمة من قبح وبشاعة ، حلت محلهما الاتجاهات الثورية الجديدة . وكان الكتاب على اخلاف ميولهم ومشاربهم يدلون بادلائهم في هذا الكفاح الناقد الذي يتميز بالسخرية والرغبة في ازالة الانقاض القديمة ، ليحل محلها البناء الجديد .

لكن النقد الساخر ، كان لكاتبنا اكثر من مجرد سلاح في الحقل الادبي ، أو حلية يزين بها ادبه . انه المجال ، الذي عكس مواهبه الادبية في مستهل طلوعها واشراقها . ومازال الادب السوفياتي المعاصر ، يسجل له صورته ، ككاتب قصة قصيرة وناقد ساخر ، وروائي يجيد كتابة «الكوميديا» . وراح ينقل في هذه الفترة الى لغة الازابكة ، قصتي « المفتش العام ، و الارواح الميتة لجوجول ، وقصص « الشاويش بريشيبييف ، و السمك ، و المجرم ، و موت كاتب الحكومة ، و الحرباء» وغيرها لتشيخوف ، كما ترجم قصة «جامعاتي» لجوركي .

وافاد عبد الله من ترجماته هـذه فائدة كبرى ، اذ أن دراسـته العميقة للمؤلفات الكلاسيكية ، جعلته يتخير الالفاظ التى يستعملها ، وينتقى التعابير التى ينقلها فيها ، ويحاكى اسلوبهـا ، ويتعمق فى فهم حـوارها ، وحبكتها القصصية . ولاريب فى انه كان موفقا كل التوفيق فى ترجماته ، وفى اختياره للكتب التى يترجمها والتى يقف كتاب « الحرب والسـلام » لتولستوى و « الطوفان الحـديدى » لسيرافيموفيتش و « ليوبوف ياروفايا » لتريتيون فى مقدمتها .

لكن موهبة عبد الله الأولى كانت فى القصة القصيرة اذ اعتبر من اكبر كتابها فى الأدب السـوفياتى الحديث ، وتعتبر قصصه من أهم عوامل التطور فى ادب اوزبستان فقد صور فى اروعها ، وكلها من نتاج ثلاثينات هذا القرن الماضى بشقائه ومآسيه ولكنه لم يهمل القصة الطويلة على اى حال ، بل وضـع فى هذه الفترة قصته المشهورة « السراب » التى تناول فيها موضوعا عصريا .

وقد عالج فى هذه القصة موضوع «القومية» ، وهى ظاهرة من الظواهر العميقة الجذور فى حياة الجمهوريات الآسيوية السوفياتية . وبطلها شاب ازبكى ، انتقل من القرية الى المدينة ليتلقى العلم فيها ، وليبنى لنفسه مكانا فى حياتها . وهذا الشاب واسمه «سيدى» ، ضعيف الارادة واهن الشخصية ، وقد صوره كاتبنا بانه كان «يفتقر الى القدرة على تكوين أى رأى لنفسه ، وانما يعتمد فى حقائقه على اقوال من حوله » . وسرعان مادفع تحت تأثير شاب آخر يدعى احسان ، كان من اعـز أصدقائه ، ويتميز بالصدق والاخلاص والحماسة ، اذ نشأ من اسرة عاملة ، وكان تواقا الى اكتساب المعرفة ، حالما بأن يصبح من مشاهير الاطباء ، وراح بطلنا يقلد صديقه ، فانتسب الى الجامعة . ولكن احسان مالبث أن مضى الى موسكو ليلتحق بجامعتها ، ووجد «سيدى» نفسه بين مجموعة جديدة من الاصدقاء ، توهم فيهم الرفعة والتهذيب . واحب فتاة تنتمى الى أسرة غنية ، كانت تزامله فى الجامعة ، واخذا يدرسان معا . وكان عليه كعضو فى منظمة الشبيبة أن يساعد عاملا شابا من عمال المناجم فى دراسته ، ولكنه وجد ان مساعدة الفتاة الجميلة الغنية أكثر استهواء لنفسه من مساعدة هذا الشاب الذى اسودت يداه من عمله فى المنجم .

وتسير القصة على هذا النحو العادى المألوف ، فتتزوج الفتاة التى يهواها كما هو المتوقع من شاب غنى خطبها بعد ان تعرف الى اخيها . ولكن سيدى وقـد استهوته « متع الحياة» يتزوج فتاة عادية ، هى ابنة معلم مدرسـة تحـوم حوله الشبهات . وقد وصفه الكاتب وصفا ساخرا فقال ... « وكان هذا المعلم يشـبه البطة فى خصائصها ، فالبطة كما يعرف كل انسان تتميز بثلاث خصائص ، فهى تطير فى الهواء وتسير على الارض ، وتعوم فى الماء . وكان هذا المعلم أستاذا فى مدرسته ، اما فى القرية فهو من كبـار الملاك ، وفى بيتـه حيث لاتصله العيون ، فهـو تاجـر مستغل » .

وكان سيدى ، قد تعرف فى بيت حبيبته السابقة على جماعة من الشبان الاغرار الفاسدين ، الذين ينتمون الى مختلف القوميات ، والذين كانوا يحاولون تكييف انفسهم للثورة بمختلف السبل ، مستغلين الخطب الثورية التى يلقونهـا

لاشباع انتهازيتهم ، ولجنى الارباح من التجارات المشبوهة التى يمارسونها ، ولتحقيق بعض المكائد السياسية الرامية الى اغتصاب الحكم .

هذه الصور المشبوهة ، هى التى حاول الكاتب أن يرسمها بريشته البارعة ، وقد نقلها من الأجواء التى عاشها فى الصحافة اليومية والأدبية وحلقات الكتاب والأدباء والطلاب ، وزمر الشبان من أدعياء القومية ، الذين يجتمعون فى بيوت الانتهازيين ، ويتصدون بشباكهم السذج من أمثال سيدى ، ليحاربوا بايديهم واقلامهم الأهداف الحقيقية للثورة عن طريق خداع الجماهير .

ولقد كشفت رواية «السراب» عن موهبة قهار النقدية الساخرة ، فهى تضم عددا من الصور والمناظر التى تتميز بها أروع الكوميديات الساخرة . وكثيرا ماتتحول سخريته الرقيقة الناعمة فجأة الى سخرية لاذعة ، تشرق بشىء من الغضب والقسوة من شخصية سيدى وأمثاله . بقلمه البارع تظهر لنا صور هؤلاء الشبان بأساليبهم الناعمة المخنثة ، وطرقهم المهذبة الزائفة . وملابسهم الأنيقة ، وميلهم الى الحياة الوادعة من خمر وميسر مما يجعلهم أقرب الى «البكوات» من الاقطاعيين القدامى .

ولعل أروع ماكتبه قهار روايته «العصفور الصغير» التى نشرت فى عام ١٩٥٧ لما فيها من تعبير وصقل وتصوير . ففى ربيع عام ١٩٥٧ ، قام الكاتب مع مجموعة من أدباء اوزبكستان ، برحلةطويلة جالوافيها أرجاء فرغانه ، وزاروا عددامن المزارع الجماعية ، والتقوا بعدد كبير من مزارعى القطن . وكانت هذه الرواية الانعكاس الذى خلفته هذه الجوله فى نفسه وخياله .

وتعتبر الرواية ، قصة هزلية ذات طابع خاص ، يجعلها أقرب الى الدراما الاصيلة . وقد عكس فيها بمنتهى الدقة والبراعة ، أشكال الحوار الذى يدور بين فلاحى اوزبكستان منذ أقدم عصور التاريخ . ولاريب فى أن الحوار بين بطلى القصة ، كالانداروف رئيس المزرعة الجماعية والفتاة الشابة « سعيدة » التى بعثت بها اللجنة المركزية للحزب لتساعده فى اعماله ، صورة ناطقة معبرة عن حياة الريف فى آسيا الوسطى .

وتظهر فى هذا الحوار أيضا ، الفكرة الخالدة فى عالم الادب منذ أقدم عصوره ، وهى فكرة التبارى بين الرجل والمراة فى الذكاء والاحساس والارادة والقدرة على الاقناع . وعندما يقرأ المرء هذا الحوار ، يجد نفسه مسوقا بالرغم منه ، الى تذكر حوار شكسبير فى روايته « ترويض الناشز » ، أو حوار موليير فى بعض مسرحياته أو بوكاشيو فى قصصه « ديكاميرون » ، لكن الفرق بين حوار قهار ، وحوار أولئك ، انهم كانوا يحصرونه فى مواضع الحب ، بينما نجد بطلة قهار تنافس بطله فى الحديث عن العمل والشئون العامة وقيادة الناس .

والبطل اكبر سنا من البطلة ، واكثر تجربة ، فهو شخصية بارزة فى مجتمعه اشتهر امره وذاع صيته لا فى مزرعته فحسب بل وفى انحاء المنطقة كلها ، حيث عرف عنه الداب فى العمل ، والرغبة فى السيطرة . أما البطلة « سعيدة » ، فهى فى

العشرين من عمرها ، وهى عضو فى منظمة الشبيبة وفى لجنة الحزب الاقليمية ، ذات ثقافة واسعة ، ولكنها الأحلام كغيرها من الفتيات فى سنها ، ولا تعرف العمل فى المزارع الجماعية . ويعتبر كالانداروف ان الحزب قد أهانه بتعيين هذه الفتاة الغرة مساعدة له . أما سعيدة ، فتتضارب فى نفسها العواطف المختلفة ، والافكار المتباينة فهى أحيانا خائفة من كالانداروف ، وأحيانا أخرى تريد أن تعيد تنظيم المزرعة . وهى راغبة فى أن تؤدى عملها اداء صحيحا حتى لايزدريها أمين الحزب ، بينما تتظاهر من الحين والآخر بفضول الاطفال .

وموضوع القصة من النوع الدرامى . فالحزب هو الذى قذف بالفتاة على راس كالانداروف ، الذى ألف السلطة المطلقة فى مملكته الصغيرة ، والذى تعود على النظر الى المراة كشىء اقل قيمة من الرجل . ومن هنا كان لابد للصراع من أن يقع ، وينشأ عن حبكة هذا الصراع فى مراحله المختلفة موضوع القصة ، التى لابد وأن تنتهى بالنصر للبطل أو للبطلة .

ويبدو من السرد أن الكاتب كان أكثر ميلا للبطلة منه للبطل فى صراعهما ، ولذا فهو يحاول أن يحمل عواطف القارىء معه فى هذا الاتجاه ايضا . فهو يبدأ الحديث عنها باسمها المجرد ، ثم لايلبث أن يسميها «سعيدتنا» ، ليعود بعدها ، فيسميها «سعيدتنا المسكينة» معربا بذلك عن عطفه البالغ عليها . وهو لهذا يلقبها «بالعصفور الصغير» الذى يصارع رجلا ضخما مغرورا كالبطل . وينتهى من قصته طبعا ، بتصوير انتصار العصفور على المارد ، انتصارا يطيح به ويدمره . ولكنه يمتنع على اى حال عن ذكر ذلك صراحة ، لان البطل ، ليس من الاشخاص السلبيين الذين يجب تدميرهم على هذا النحو القاسى .

فكالانداروف ، مزارع مجرب ، ذو مواهب لايمكن نكرانها . يتميز بقوة الشخصية والرغبة فى السيطرة وان افتقر الى الثقافة . وهو فى جميع تصرفاته اقرب مايكون الى السيد الاقطاعى القديم الذى يتحلق حوله المداهنون والمنافقون. ولكنه مع ذلك يؤدى عملا كبيرا ونافعا . ويتقن اداءه . وهو منظم ممتاز ، ولكنه تواق الى الشهرة وان كان بعيدا عن الرغبة فى الكسب المادى الشخصى . وهو لايحارب «سعيدة» ، لأنه يخشاها . على مكانته فى المزرعة ، وانما بدافع مايحس به الذكر من كبرياء امام الأنثى ، ونتيجة اقتناعه ، بأنه كعضو فى الحزب ، لايحتاج الى من يرشده فى أعمال التنظيم . ولما كان هذا المرشد يحمل صورة الفتاة التى لاتعرف شيئا عن زراعة القطن رغم ثقافتها ، ولما كانت هذه الفتاة قد شرعت فى التدخل فى عمله ، فقد أحس بكرامته تصاب وتهان ، فثار لهذه الكرامة الجريحة .

اما سعيدة ففتاة حساسه انوف ، معتزة بنفسها ، وهى تدرك أن كالانداروف يحاول الالها وابعادها عن المزرعة . ويكاد ينجح فى خطته ، فتستشيط غيظا وتنهمر الدموع من مآقيها ، وتبعث برسالة الى سكرتير الحزب فى المنطقة ، ترجو نقلها من مركزها ، ولكن هذا كان يعرف طبيعتها وشخصيتها قبل أن يبعث بها الى المزرعة ، فيساعدها بكل كياسه وذكاء على ان تسحب طلبها شكواها .

واحست الفتاة بالخجل من تصرفها ، فعزمت على البقاء والدفاع عن كرامة الحزب، وراحت تعيد الى المزرعة تنظيم فرع الحزب فيها بكل هدوء واناة ، بعد ان كان كالانداروف قد جعل من هذا الفرع باستبداده شيئا تافها لا قيمة له .

ويفكر كالانداروف بتوجيه الضربة المقابلة اليها ، لاسيما وهو يعرف ان معلوماتها فى الشئون الزراعية شبه معدومة . ويطلب اليها ان ترافقه فى جولة فى الحقول ، بعد ان يحملها على امتطاء ظهر جواد وكانت هذه التجربة شاقة عليها ، اذ كانت تجهل ركوب الجياد . لكن هذه الجولة كانت نافعة ، اذ اكتشف كل من الفريقين فى صاحبه ميزات كان يجهلها ولكنها جديرة باحترامه . وكان كل منهما ينشد العون من جماعته فى المزرعة ، ولكن سرعان ماتبينا ان من فى المزرعة متفقون فى كلمتهم ، لا على تأييد هذا أو ذاك ، بل على تأييد القضية التى يعملون من اجلها. وبالرغم من النزعات الاستبدادية التى كانت مسيطرة عليه ، الا أن كالانداروف ابدى منتهى الحماسة فى انتاج القطن ، وكانت حماسته حافزا لسعيدة على مشاركته النضال لخير الجميع .

وقد لاتكون ثمة حاجة الى التفصيل فى تحليل كل مارافق هذه الجولة من احداث . الا انها انتهت الى النضال المشترك الذى افاد فيه الفريقان الكثير .

وهكذا كان وصول العصفور الصغير الى المزرعة ، عاملا فى تغيير حياة الكثيرين من اهلها . وهنا تنتهى القصة كما تنتهى سائر القصص الكوميدية المماثلة لها ، بالحب ينمو بين البطلة وبين نجل البطل ، وهو طبيب شاب يدعى اواسيمبيك فيتزوجان فى النهاية ويعيشان حياة سعيدة .

وقد لايكون فى هذه القصة شىء جديد يحمل طابع الامتياز من ناحية المادة أو الموضوع أو الاشخاص أو الاوضاع التى تعالجها . فظهور المراة فى ادب آسيا السوفياتية ، بدأ مع بداية عهد الثورة . وقد تميز انتاج الكتاب الأوائل بابراز نضال المراة السوفياتية فى هذه المناطق للمساواة مع الرجل ، بعد قرون طويلة من التخلف والجهل .

وليس ثمة من شك فى أن شخصية سعيدة ، شخصية شاعرية طافحةبالحياة والشباب والأنوثة والطهر ، والعناية الفائقة بالناس والصدق ، والحماسة الايثارية لمصلحة المجموع . لكنها فى الوقت نفسه تجمع فى صورتها أيضا الاحساس بالكرامة التى تتميز بها المثقفات من نساء عصرنا ، والثقة بالنفس التى تترك طابعها العنيف عند كل من يحيط بها من الناس ، ليأخذوا بيدها ويشدو ازرها فى الاوضاع التى يكون افتقارها الى الخبرة والتجربة عقبة فى طريق عملها . ولعل مايميز البطلة هو هذا الاحساس العميق بالواجب نحو الناس والمجتمع ، والذى يكاد يشبه الشعلة التى تضىء لها طريقها فى احرج الأوقات .

والبطلة ولاشك سيدة ازبكية نموذجية ، لكل ماعرف عن سيدات تلك البلاد من رقة ونعومة . ولكن بعض خصائصها ، هى من الميزات التى اصبحت تلازم المراة

فى المجتمع الاشتراكى الجديد . ولاريب فى أن الصورة التى رسمها لها الكاتب تجعل منها بطلة من كبريات البطلات فى الأدب العالمى الحديث .

وتمكن قهار بما لديه من مواهب نقدية ساخرة رائعة ، وميل فطرى الى تصوير قصصه بالصورة الدرامانية ، من ولوج باب الرواية المسرحية ، التى مارس فيها قدرته الفائقة فى خلق الصراعات بين الابطال والتناقضات بين المواقف . وكانت مسرحيته الهزلية الأولى « سوسانى الناعمة » ، سببا فى الشهرة الداوية التى حققها ، وفى فوزه بجائزة الدولة فى الكتابة المسرحية ، وفى تمثيل ما يكتبه خلى أعظم مسارح الاتحاد السوفياتى كله .

والظاهرة البارزة فى كتاباته ، هى شغفه العظيم بالشعب الذى ينتمى اليه ، وحبه لأهل وادى فرغانه ، ووصفه لجمال هذا الوادى الرائع واليافع . ولا ريب فى انه خير من عرف العالم فى قصصه ومسرحياته على هذه الانحاء الناحية المجهولة من الاتحاد السوفياتى ، وعلى أهلها ، مصورا افكارهم ومشاعرهم وآمالهم وخيبات املهم .

وهو يصور كل ذلك بصدق وموضوعية ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ...

انه يستمد عبقريته من الشعب ليعيد له ، الصور التى يحس فيها بانه قد ادى واجبه له .